جوليا كريستيفا:
تثوير النموذج

د. محمد بوعزة

استاذ باحث من أكاديمية مكناس/المغرب

ولدت جوليا كريستيفا سنة 1941، هاجرت من بلغاريا إلى فرنسا كطالبة عام 1965، وانخرطت في الحياة الفكرية والثقافية والسياسية، وانضمت إلى المجلة الأدبية الشهيرة (تل كل) لمحررها فيليب سولرس، وكانت منبرا ثقافيا للحركة الطليعية غير المحافظة في الفنون والكتابة.

برزت كريستيفا أول الأمر في المشهد الفرنسي في أواخر الستينات، معرفة بأعمال ميخائيل باختين ومفسرة لها. وبعد ذلك، فرضت نفسها باعتبارها منظرة سيميائية هامة في اللغة والأدب. وبرأي أغلب المختصين، فإن أهم إنجاز لكريستيفا هو كتابها "ثورة اللغة الشعرية"، حيث تنطلق من منظور جديد دينامي وجدلي، مختلف عن النظريات اللسانية والسيميائية ذات التوجه الصوري الرياضي، إذ تعتمد على تحليل جديد ابتكرته واصطلحت على تسميته بالتحليل الدلائلي (الدلائلية) لاستكشاف العمليات والاستراتيجيات التي تتدخل بها العناصر "اللاعقلية" والمتغايرة لانتهاك نظام العناصر المنتظمة والمقبولة عقليا، بحيث يصبح الشعري في ممارسته السيميائية انتهاكا "للعادي" و"المألوف"، وتدميرا ل"القانون" ولكافة أشكال السلطة.

هذا الرفض المطلق لسلطة أي نسق، تترجمه المغامرة العلمية لكريستيفا. ذلك أنها رفضت التقوقع في نظام معرفي مغلق، وظلت تتنقل بحرية بين الحقول العلمية، تحتفي بفكرة **العبور** الذي يخترق الحدود والأنساق، تتقمص أكثر من صورة، عالمة

سيميائية وناقدة أدبية ومحللة نفسانية ومنظرة في النظرية النسوية. واحدة من أبـــرز نقاد البنيوية وما بعد البنيوية، لم تستسغ الإقامة الدائمة في أسطورة الإطار، ظلـــت شغوفة بمطاردة العلامات عبر اللسانية في مختلف أشكالها الدالة. وبذلك استطاعت أن تجسد عبر ممارستها السيميائية فكرتها عن الذات كصيرورة، متحررة من سلطة النسق، عابرة بين اللسانيات والسيميائيات والنقد الأدبـــي والتحليـــل النفســـي والمادية الجدلية والفينومينولوجيا.

فكرة العبور الثقافي ستقود كريستيفا إلى بلورة تصورها لمفهوم النظرية كنوع من **النفي** بالمعنى الفلسفي الجدلي، ينتهك وحدة النموذج، ويتيح للذات ممارسة تعـــدد لا يقبل الوحدة إطلاقا، تعدد يترجم الخصائص المتغايرة لبنية للذات، حيث تظل النظريـــة مفتوحة على احتمالات لانهائية، تفكر في نفسها بوعي نقدي، دون الخضوع لســـلطة الأنساق الشمولية، بفضل حركة نفي داخلي، تستحثها على تجاوز حدودها والانفتاح على التخوم المعرفية، في موقع تقاطع عابر، منـــزاح عن أي تمركز وانغلاق.

في هذا المفهوم الجدلي تتشكل النظرية عند كريستيفا **كمنطق**، ولكن عـــوض أن يكون منطقا صوريا، يكون منطقا جدليا، بمعنى نقد لمنهجها وموضوعها ونقـــد للعلم في نموذجه الوضعي الحيادي. وهذا ما سمح لكريستيفا أن تطور نموذجا جدليا منفتحا، في نقطة التقاطع بين السيميائيات والمادية الجدلية (مـــاركس) والتحليـــل نفسي (فرويد ولاكان) والفينومينولوجيا (ميرلوبونتي) ونظرية الأدب والنسوية.

السيميائيات كعلم نقدي:

لقد سعت كريستيفا إلى إعـــادة بنـــاء موضـــوع الســـيميائيات في وضـــع ابستيمولوجي معقد بصراع النماذج وتجاذباها المتداخلة، يتوجه فيه الخطاب العلمي إلى النموذج اللغوي بغية بناء نماذجه." فمادامت الممارســـات (الاجتماعيـــة: اي الاقتصاد، والعادات والفن...) تصورت نظاما دالا "مبنينا وشبيها باللغة" فـــيمكن لكل ممارسة أن تدرس دراسة علمية، على اعتبار أنها نموذجا ثانويا بالنســـبة للغـــة الطبيعية، حيث ستنمذج هذه وسينمذجها."[1]

1 جوليا كريستيفا: السيميائيات كعلم نقدي/أو نقد للعلم، ترجمة عبد السلام فزازي، مجلة نوافد، جدة، ع 8، 1999، ص 57.

في هذا السياق الابستيمولوجي الموسوم بهيمنة النموذج العلمي، سيكون على السيميائيات بناء موضوعها، أو بالأحرى البحث عن نموذجها بإستراتيجية مغايرة. هنا تكمن المشكلة، مشكلة إثبات حق الوجود لخطاب يكون قادرا على إنتاج معرفة خاصة بموضوعه من جهة أولى.

وفي سياق هذا التحدي الأول (مشكلة التأسيس)، ستجد السيميائيات نفسها، وهي تخوض مغامرة البحث عن الذات في وضع مفترق الطرق، في مواجهة تحدي النموذج العلمي، الذي فرض عليها ترسيم حدودها الابستيمولوجية، في صيرورة "ارتباطاتها الابستيمولوجية باللسانيات، بل باقتباسها لنماذجها التي قد توظفها وتستعملها عند محاولة تحديد نفسها، من علوم شكلية بحتة (الرياضيات، المنطق، اللذان يعتبران شعبتين لعلم واسع "نماذج اللغة."[1]

لمواجهة تحديات هذا الوضع الابستيمولوجي، سيتجه تفكير كريستيفا إلى صياغة نظرية للسيميائيات عبر إستراتيجية ثلاثية المسارات:

- البحث في مفهوم وماهية السيميائيات.
- البحث في أدوار السيميائيات.
- البحث في الخصوصية المميزة للسيميائيات عن بقية العلوم.

وهذا ما يوضح أن مهمة التأسيس ستتخذ مسارين: مسار حفري يبحث في العناصر ذات الدور التكويني، ويحفر في المرجعيات ويفسر الاختلاف والتعدد في المستوى الابستيمولوجي، ومسار استكشافي يستقصي المميزات والأدوار والمهام الجديدة للسيميائيات. هذه الخطة ستمكن كريستيفا من تحديد موقع السيميائية بمنظور نقدي تفكيكي في تاريخ العلم وتاريخ الفكر العلمي.

يبدأ مشكل التأسيس من محاولة بناء تعريف للسيميائيات، ذلك أن السيميائيات في أصل نشأتها الحديثة – في نظر "دي سوسور" – تحتوي العلم الواسع للعلامات، ولا تمثل اللسانيات إلا جزءا منه فقط، باعتبار أن اللسان ليس سوى نسق خاص من ضمن الأنساق السيميائية. إلا أنه ظهر لاحقا أن موضوع العلاقة في السيميائيات (حركة، صوت، صورة...)، لا يمكن الوصول إليه انطلاقا

1 المرجع نفسه، ص 60.

من نسق اللغة. وسيتضح أن اللسانيات لا تمثل جزءا ولو أنه حقا جزء متميز من علم العلامات، بل تعتبر السيميائيات جزءا من اللسانيات: وهي أساسا الجزء الذي يعتني بأهمية الوحدات الكبرى الدالة في الخطاب[1].

في إطار تأويلها للسانيات سوسور، تحدث كرسيتفا تجاوزا في تصوره لعلاقة النموذج اللساني بالسيميائيات، حيث ترفض التأويل الحصري للمقترح السوسوري الذي يرى إن اللسانيات يمكنها أن تصبح النموذج العام لكل سيميولوجيا، رغم أن اللسان ليس إلا نسقا خاصا[2].

وانسجاما مع تصورها الجديد للسيميائيات، لا تحتفظ كريستيفا سوى بالجزء الثاني في تعريف سوسور للسيميولوجيا، أي اعتبار اللسان ليس سوى نسق خاص. وهذا يتيح في نظرها أمام السيميائيات إمكانية الانفلات من قوانين دلالة الخطابات كأنساق للتواصل، وتفكر في ميادين أخرى للتدليل.

وتعد القطيعة مع التأويل الحصري - بحسب مارسيلو - لميدان السيميائيات بالنسبة لكريستيفا خطوة حاسمة في أن تشق السيميائيات لنفسها منعطفا جديدا لا يرهن إلى شكلنة الأنساق السيميوطيقية من وجهة نظر التواصل، بل أن تبادر باقتحام المشهد الآخر وهو التفكير في قوانين الدلالة دون أن تبقى أسيرة اللغة التواصلية التي تغيب فيها مكانة الذات.[3]

في سياق تداعيات هذه القطيعة مع النموذج التواصلي، تعيد "كريستيفا" تحديد موضوع السيميائيات: "إنها شكلنة، وإنتاج للنماذج. وسنفكر أيضا عندما نذكر لفظ سيميائية في صياغة نماذج (وهو ما يجب القيام به)، فالنماذج في هذا الصدد تعني الأنظمة الشكلية التي تقابل أو تماثل في بنيتها نظام آخر (أي بنية النظام المدروس).[4]"

غير أن الإشكال الابستيمولوجي الذي ينبثق من هذا التعريف، يطرح المشكل الأساسي المتعلق بموقع السيميائيات في نسق العلوم. ذلك أن هذا التخصيص لدور

1 المرجع نفسه، ص 59.
2 مارسيلو داسكال: الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، ترجمة جماعية، إيفريقيا الشرق، 1987، ص 69.
3 مار سيلو داسكال، ص 70.
4 جوليا كريستيفا: السيميائيات كعلم نقدي/أو نقد للعلم، ص 60.

السيميائيات في في شكلنة النماذج، يواجه تحديا في أن السيميائيات لا يمكن أن تكون حيادا صوريا مطلقا، بمعنى لا يمكن أن تتأسس بمعزل عن العلوم، ولا حتى بحياد المنطق واللسانيات. "فالسيميائيات تساهم باكتشافها للخطابات في "تبادل تطبيقي" بين العلوم... وتتموضع من ثم في موقع تقاطع عدة علوم هي نفسها نتاج تداخل العلوم فيما بينها[1]".

في أفق إعادة بناء موقع السيميائيات من أجل رسم المجال السيميائي، تتوجه كريستيفا إلى تشريح علاقتها بالعلوم الأخرى. فإذا كانت السيميائيات تتشكل كعلم، لأنها تملك موضوعا خاصا هو صيغ وقوانين الدلالة في المجتمع والفكر، فإنها على مستوى عام تتبلور في موقع تقاطع علوم أخرى، لكنها" تحتفظ لنفسها بمسافة نقدية تمكنها من تفكير الخطابات العلمية التي تشكل جزءا منها وأيضا من استخراج الأساس العلمي للمادية التاريخية.[2]"

هذا الازدواج الابستيمولوجي، هو ما يحدد الوضع المفارق لموقع السيميائيات كعلم نقدي ينظم الأنساق الدالة بطريقة نقدية، ومن جهة أخرى، تتحدد كنقد للعلم" فالنماذج التي تصورها وتركبها السيميائية شبيهة بنماذج العلوم الحقة، وكلها تمثيلات. وبهذه الصورة تتحقق في التماسكات الزمكانية، غير أن السيميائية وفي هذا الصدد يظهر اختلافها عن العلوم الحقة، وهي علاوة على ذلك إنتاج لنظرية النمذجة التي تكون ماهيتها وجوانيتها: يعني أنها نظرية وبشكل مستمر متضمنة في نماذج كل علم. إلا أن السيميائية تظهر هذه النظرية وتختبرها، أو أنها لا تكونها، أي أن هذه النظرية تكون في الوقت نفسه موضوعها (وهذا هو المستوى السيميائي للتطبيقات المدروسة) وأداتها (وتعتبر ذلك النوع من النموذج الذي قد لا تناسبه بنية ما أنتجتها النظرية وعينتها)[3]".

تنتج السيميائيات موضوعها، وفي نفس الآن، تفكر في أدواتها واستراتيجياتها، وفي مسار هذا الجدل الذاتي، تصبح نظرية نقدية، أي نقدا للعلم. وتعني هذه الدورة النقدية أن السيميائيات هي في الأصل إعادة تقييم دائم لموضوعها أو

1 جوليا كريسطيفا: علم النص، ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال، 1991، ص 16.
2 المرجع نفسه، ص 17.
3 جوليا كريستيفا: السيميائيات كعلم نقدي/أو نقد للعلوم، ص 61.

نماذجها. نقد لهذه النماذج، أي هي نقد للعلوم التي اقتبست منها تلك النماذج، ونقد لذاتها[1].

بهذا الوعي النقدي تتحرك السيميائيات في اتجاه العلوم الأخرى، بحكم أنها تفكر في كل المواضيع المتصلة بالمجتمع والثقافة والفكر. وهذا ما يحدد الروابط الجدلية التي تربطها بالعلوم الأخرى، وبالأخص علوم اللسانيات والرياضيات والمنطق التي تقتبس منها نماذجها. ففي انفتاحها على اصطلاحية هذه العلوم، تعمل على خلخلتها لتعيد إنتاج خطاب جديد وموضوع جديد ومنهج جديد.

وتتم هذه الخلخلة الابستيمولوجية عبر تدمير المقدمات الأولية التي ينطلق منها الإجراء العلمي، ذلك أن اللسانيات والرياضيات والمنطق ليست سوى "مقدمات أولية محطمة" في السيميائيات ولا ترتبط بقانونها الأساسي إلا خارج مجال السيميائية، "وإن ظلت تحتفظ برباط ما، فهو رباط ضعيف جدا. وبعيدا عن كون هذه العلوم الملحقة تعتبر مخزنا فقط لاقتباس النماذج من أجل السيميائية، فإنها تعتبر أيضا الموضوع المرفوض. الموضوع الذي ترفضه لتتأسس بجلاء كنقد."[2]

في إطار هذا التصور الجدلي التفكيكي تتحدد علاقات السيميائيات بالعلوم الأخرى. وبذلك تذهب كريستيفا أبعد من منظور "بارث" لعلاقة السيميائيات بالعلوم. فإذا كان "بارث" يرى العلاقة بينهما علاقة خدمة، تتيح للسيمائيات "أن تسدي خدمات لبعض العلوم وتصاحبها في طريقها وتقترح عليها نموذجا إجرائيا، يحدد انطلاقا منه، كل علم نوعية ما ينصب عليه"[3]، فإن كريستيفا تنطلق من رؤية جدلية ترتقي بالسيمائيات إلى مقام الابستيمولوجية، بصفتها علما نقديا، ونقدا للعلم.

وإذا كان من المستحيل على السيميائيات أن تستغني عن العلوم الأخرى، لأنها لا تمتلك وجودا خاصا، بحكم أن الموضوع الذي تفكر فيه يتصل بمختلف مناحي الثقافة والمجتمع، أي قوانين الدلالة، بحيث تجد نفسها بالضرورة في وضع تداخل

1 المرجع نفسه، ص 62.
2 المرجع نفسه، ص 66.
3 رولان بارط: درس السيميولوجيا، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال، ط 2، 1993، ص 25.

العلوم، تتحرك لتقتبس مفاهيمها واصطلاحاتها منها، فإن هذا التداخل يتم بطريقة جدلية تفكيكية تعيد موقعة المفاهيم داخل السياق الجديد للسيميائيات، مما ينتـــهي بها إلى الانـــزياح عن أصلها، حيث يتأســـس هـــذا الانـــزياح علـــى قـــانون ابستيمولوجي تسميه كرستيفا ب" **جدة اللاجديد**".

هذا المفهوم استعارته كريستيفا من ألتوسير: "والموضوع الجديـــد – كمـــا يصرح بذلك ألتوسير – يمكن أن يحتفظ ببعض الروابط مع الموضوع الإيديولوجي القديم. فقد نجد فيه عناصر تمت بصلة إلى الموضوع القديم أيضا، لكن قد يتغير معنى بعض هذه العناصر في البنية الجديدة التي تزيد على معناها تماما... وماركس نفسه قد مارس هذا التدمير على تجارة الربح "الميركانتيلية" نتيجة زيادة قيمة المنتوج "لكن ماركس منح لنفس الكلمة معنى جديدا حيث أوجد معنى" جدة اللاجديد كحقيقة متمثلة في موقفين متغايرين: يعني جدة اللاجديد في كيفية وضع هذه الحقيقة الكائنة في خطابين نظريين".[1]

على قاعدة قانون جدة اللاجديد، وأيضا مبدأ المبادلة في نفس المصطلح عنـــد توظيفه في سياقات نظرية مختلفة تتحدد شبكة التداخلات بين السيميائيات والعلوم الأخرى. يتعلق الأمر، إذن، بقانون جدلي تفكيكي بموجبه تحـــدث الســـيميائيات تحولا وقلبا في معنى المصطلحات، يتوافق مع رهانات السيميائيات كعلم نقـــدي. وبذلك توظف هذه المصطلحات بطريقة مغايرة لأصولها المرجعية، حيث تكتســـب دلالات مغايرة في المجال السيميائي الجديد الذي تبنيه الســـيميائيات لنفســـها."إن المصطلحات الرياضية مثل "القاعدة النظرية للوجود" أو "اعتباطيـــة الاختيـــار" أو المصطلحات الفيزيائية مثل "التساكن" أو المصطلحات اللسانية مثل "القـــدرة" أو "الأداة" و"التوليد" أو "التكرار" أو المصطلحات المنطقية مثل "الوصل بين الشـــيئين بوثاق" أو "البنيات القائمة التكامل"... هذه المصطلحات جملة وتفصيلا يمكن عند استعمالها وتوظيفها في موضوع إيديولوجي جديد أن تأخذ معنى آخر، شأنه شأن الموضوع الجديد الذي تشكله السيميائية المعاصرة، والذي يختلف عن الميدان الذي وظفت فيه تلك المصطلحات باعتماد السيميائية على مفهوم جدة اللاجديد وكذا

1 جوليا كريستيفا: السيميائيات كعلم نقدي/أو نقد للعلم، ص 67.

على المبادلة في معنى نفس المصطلح عند توظيفه في سياقات نظرية مختلفة، تكشف القناع عن إمكانية ميلاد العلم في الإيديولوجية.[1]"

في سياق هذا الوضع المتداخل خطابيا يتحدد المجال السيميائي بأنه دينامي، إذ لا يستقر على نسق مغلق، ولا يتقيد بحدود صارمة. وفي بؤرة تفاعلاته يتحدد كتدخل نقدي للمعرفة العلمية، ينتزع العلوم من تمركزها ومن حيادها الصوري اللانقدي.

من اللساني إلى الدلائلي:

إحدى أبرز الرهانات المعرفية للتحليل الدلائلي هي صياغة خطاب نظري ومنهجي قادر على إنتاج معرفة بالاشتغال النصي، يستهدف البحث في مفهوم النص وديناميته الإنتاجية، بالمقارنة مع خطابات وحقول معرفية أخرى، دون أن يعني ذلك الانغلاق داخل منظور أحادي. وتتمثل المغامرة المعرفية التي اقتحمت كرستيفا تحدياتها الابستيمولوجية في صياغة رؤية دينامية للنص تكون نسقية وانتهاكية، بنيوية وجدلية، نصية وتاريخية.

في هذا السياق تقترح علما جديدا لدراسة موضوع النص بغض النظر عن نوعه، تسميه التحليل الدلائلي (الدلائلية)، **ينبني كنقد للمعنى ولعناصره وقوانينه**، ويتحدد **كعلم للنص** يتجاوز حدود السيميائيات: "ولأن علم النص أكبر من أن يكون مجرد "سيميولوجيا" أو سيميائيات، فهو ينبني كنقد للمعنى ولعناصره وقوانينه ويتأسس من ثمة كتحليل دلائلي.[2]"

يشكل مفهوم "النص" الموضوع الخصوصي للتحليل الدلائلي. ما مكانة هذا الموضوع الخصوصي في خضم الممارسات الدالة؟ ماهي قوانين اشتغاله؟ ما دوره التاريخي؟

تنظر كريستيفا إلى مفهوم النص نظرة جدلية تزاوج فيها بين ما هو بنيوي- شكلاني وما جدلي ثقافي، مرتبط بالدلالة التاريخية والاجتماعية. فهي حين تتساءل عن "قوانين اشتغال" النص وعن "دوره التاريخي والاجتماعي"، تعيد ربط مفهوم

---

1 المرجع نفسه: 66.

2 جوليا كريستيفا: علم النص، ص 16.

النص بالذات والتاريخ والمجتمع، دون أن تسقط في التصورات الكلاسيكية. لذلك يتخذ النص في منظور التحليل الدلائلي وضعا ديناميا مغايرا، يتجاوز ما تتسم به النماذج السوسيولوجية والاستطيقية من اختزال.

وفي مشروعها النقدي لبناء خطاب جديد، تتجه كريستيفا إلى بناء المجال المعرفي للتحليل الدلائلي عبر مراجعة جذرية للوضع المعرفي السائد. وفي إطار هذه المراجعة الابستيمولوجية تسجل "غياب كلية مفاهيمية قادرة على التوصل إلى تفرد "النص" وتسجيل مواقع قوته وتحوله وصيرورته التاريخية وأثره على مجموع الممارسات الدالة.[1]"

لذلك تجد نفسها تتورط في سجال نقدي على جبهات متعددة، تزامنية وتاريخية، فلسفية وعلمية، وأدبية، ينتقد التصور المثالي الغارق في الشكلنة الصورية للنص داخل اللسانيات، ويخلخل وهم الموضوعية في النموذج العلمي.

يتلاءم هذا النقد الجذري مع الخط الطليعي الثوري الجديد الذي كانت تصارع من أجله جماعة "تل كل"، التي تبنت مفهوما للنظرية كممارسة جدلية ثورية في مواجهة قوى المحافظة والتقليد. وهذا يوضح أن كريستيفا كانت على وعي ابستيمولوجي طليعي بالحدود المنهجية والنظرية للوضع السائد لنظرية النص: "لكن إذا كان مفهوم النص، كما طرحناه هنا، ينفلت من قبضة الموضوع الأدبي، الذي تطالب به كل من النزعة السوسيولوجية الفجة والنزعة الجمالية، فإننا لا ينبغي أن نخلطه مع ذاك الموضوع المسطح الذي تطرحه اللسانيات كنص، جاهدة في توضيح القواعد البرهانية لتمفصلاته وتحولاته. إن وصفا وضعيا للطابع النحوي (التركيبي أو الدلالي) أو اللانحوي ليس كافيا لتحديد خصوصية النص كما نقرأه. ولا يمكن لتلك الدراسة أن تدعي توفير نسق من القواعد الصورية القادرة على التغطية التامة لعملية الدلالية، إذ أن عمل هذه الأخيرة يكون دائما فائضا يتجاوز قواعد الخطاب التواصلي، ومن حيث هو كذلك فإنه عمل ملحاح داخل حضور الصيغة النصية.[2]"

---

1 علم النص، ص 8.
2 علم النص، ص 14.

ولأن النص في منظور التحليل الدلائلي يتجاوز اللسان، عبر عملية مواجهة (مفهوم الدلالية) تتم داخل مادة اللسان، تقود إلى خلخلة اللسان وانتزاعه من لاوعيه ومن آلية اشتغاله اليومي، فإنه يتشكل كدليل عبر لساني، يفشل الوصف اللساني في إدراك قوانين اشتغاله النصي، ذلك أن دينامية التدليل تتخطى منطق اللغة التواصلية، التي لا تمثل سوى الوجه السطحي للسان.

وفي هذا الفعل الثوري للتجاوز الذي تقوم به الدلالية عبر تحويل مادة اللسان في تنظيمه النحوي والمنطقي، يقوم النص (سواء كان أدبيا أو شعريا أو غيره) "بحفر خط عمودي (في مساحة النص) تتلاقى فيها نماذج هذه الدلالية التي لا تحكيها اللغة التصويرية والتواصلية حتى وإن كانت تسمها بميسمها. إن النص يتوصل إلى هذا الخط العمودي من كثرة اشتغاله على الدال. تلك البصمة الصائتة التي رأى سوسير أنها تغلف المعنى، والتي نحن مطالبون بالتفكير فيها بالمعنى الذي منحه لها التحليل اللاكاني.[1]"

هذا المستوى العمودي لاشتغال النص، تبتكر له كريستيفا مفهوما جديدا تسميه "**بالدلالية**": "نعني بالدلالية هنا هذا العمل المتعلق بالتمييز والتنضيد والمواجهة الذي يمارس داخل اللسان، ويطرح على خط الذات المتكلمة سلسلة دالة تواصلية ومبنينة نحويا. وسيكون على التحليل الدلائلي الذي يدرس هذه الدلالية وأنماطها داخل النص، أن يخترق الدال - ومعه الذات والدليل والتنظيم النحوي والخطاب - بغية الوصول إلى الدائرة التي تتجمع فيها بذور ما سيتكفل بعملية الدلالة في حضرة اللسان.[2]"

بهذا المفهوم الدلائلي الذي تؤطر ضمنه كريستيفا اشتغال الدلالة في النص، ونعني به مفهوم الدلالية تحقق نقلة ابستيمولوجية[3]، عبر الانتقال من مفهوم الدلالة إلى مفهوم الدلالية، وهو ما يترتب عنه الانتقال بالبحث الدلائلي من العلامة اللسانية، إلى العلامة عبر اللسانية.

---

1 علم النص، ص 8.

2 علم النص، ص 8.

3 أنظر كتابنا إستراتيجية التأويل من النصية إلى التفكيكية، منشورات الاختلاف، دار الأمان، بيروت، 2011، ص 33.

إن الجدة التي طرحها مفهوم الدلالية تظهر في أنه يقطع مع التصور اللساني للدلالة الذي يحصر النص في التعبير عن مدلول، تارة يعتبر ظاهرا. وفي هذه الحالة يعتبر موضوعا للسانيات. وتارة أخرى ينظر إليه على أنه تعبير عن مدلول مضمر وخفي. وفي هذه الحالة يكون موضوعا لتأويل اجتماعي أو نفسي..

بخلاف ذلك يؤكد مفهوم الدلالية على تصور دينامي للمعنى، لا يكون النص ضمنه مجرد حامل لمعنى أو إخبار برسالة ومعلومات، بل ممارسة دالة تعيد توزيع نسق اللسان، من خلال الاشتغال على قوانين الدال.

وعبر هذا الإبدال في مفهوم النص، تكون كريستيفا أحد أبرز المنظرين الذين قاموا بنقش المنعطف الابستيمولوجي نحو الانتقال من الابستيمي البنيوي إلى الابستيمي ما بعد البنيوي. فطبقا لرهانات التحليل الدلائلي لم تعد غاية التحليل إظهار بنية موحدة للنص، تعتبر تجليا لبنية مجردة في إطار نحو النص، ولكن إنتاج **بنينة** للنص، تعين تعدده، وانفلاته من أي شكل (بنية) نهائي ومكتمل. وبذلك استبدلت الصورة السكونية المغلقة عن النص التي ترافق مفهوم البنية، بصورة دينامية تفكيكية مفتوحة، معبر عنها بمفاهيم الدلالية والهدم والبناء وإعادة التوزيع، والممارسة والإنتاجية.

ويصدر مفهوم الدلالية عن منظور دينامي لاشتغال المعنى وليس عن منظور كمي. فالنص في سياق صيرورة التدليل ليس مجرد مستودع للمعاني، ولا ينطوي فقط على دلالات متعددة، تعود إلى وفرة معانيه، وإنما صيرورة دينامية مفتوحة على اشتغال السيميوزيس بلغة السيميائي الأمريكي"بيرس". إنه اشتغال دينامي لا يخضع لمركز تنظيمي للمعنى، بحيث تغدو "الدلالية عبارة عن لامتناهية اختلافية ذات تركيبات غير محدودة عددا وامتدادا.[1]"

هذا البعد السيميوزيسي هو ما يحدد المستوى الأول لإنتاجية النص "كجهاز عبر لساني يعيد توزيع نظام اللسان. بمعنى أن علاقته باللسان الذي يتموقع داخله هي علاقة إعادة توزيع (صادمة بناءة) ولذلك فهو قابل للتناول عبر المقولات المنطقية لا عبر اللسانية الخالصة[2]".

---

1 علم النص، ص 10.

2 علم النص، ص 21.

بالمقابل يحدد البعد التناصي إنتاجية النص كفعل تحويلي مفتوح على الأنساق المفتوحة للكتابة، يعيد تنظيمها بطريقة نقدية حوارية، بحيث لا يمكن أن يكون ذاته سوى في اختلافه وانفتاح ممارسته الدالة باعتبار "أنه ترحال للنصوص وتداخل نصي، ففي فضاء نص معين تتقاطع وتتنافى ملفوظات عديدة مقتطعة من نصوص أخرى.[1]"

ويمثل هذا الفعل الانتهاكي (تغيير نسق اللسان) الذي يقوم به النص عبر آلية الدلالية، أساس الإستراتيجية النصية في تغيير طبيعة النسق السيميائي المتحكم في التبادل الاجتماعي. وفي هذا المستوى من اشتغال النص داخل السياق الثقافي، تعيد كريستيفا التفكير في دور النص، وتحقق انزياحا عن النموذج الانعكاسي الذي يختزل علاقة النص بالواقع في مفهوم الانعكاس. ذلك أنها بتأكيدها على قوانين الدال في الاشتغال النصي ومفاهيم الدلالية والتناص وإعادة التوزيع التي تعمق الفجوة بين النص والمرجع، ترسي مسافة سيميائية بين النص والواقع: "هكذا سيتموقع النص في الواقع الذي ينتجه عبر لعبة مزدوجة تتم في مادة اللسان وفي التاريخ الاجتماعي... وبصيغة أخرى، فإن النص ليس تلك اللغة التواصلية التي يقننها النحو، فهو لا يكتفي بتصوير الواقع أو الدلالة عليه. فحيثما يكون النص دالا فإنه يشارك في تحريك وتحويل الواقع الذي يمسك به لحظة انغلاقه. بعبارة أخرى لا يجمع النص شتات واقع ثابت أو يوهم به دائما، وإنما يبني المسرح المتنقل لحركته التي يساهم هو فيها ويكون محمولا وصفة لها. فعبر تحويل في مادة اللسان (في تنظيمه المنطقي والنحوي)، وعبر نقل علاقات القوى من الساحة التاريخية (في مدلولاتها المنظمة من موقع ذات الملفوظ المبلغ) إلى مجال اللسان ينقرئ النص ويرتبط بالواقع بشكل مزدوج. فهو يرتبط باللسان (المنزاح الذي خضع للتحول) وبالمجتمع (الذي يتوافق مع تحولاته).[2]"

إن النص في تموقعه داخل السياقات الثقافية والخطابية والتاريخية، لا يعين مرجعا، ولا يحيل على واقع مباشر، إنه يعين هذه الإستراتجية الدلالية، تحويل مادة

1 علم النص، ص 21.

2 علم النص، ص 9.

اللسان عبر إعادة توزيع مقولاته المنطقية والنحوية وتغيير قوانينه الدلالية، والتي تقود بالضرورة إلى المس بالقوانين الاجتماعية والتاريخية. "فالنص إذن خاضع لتوجه مزدوج: نحو النسق الدال الذي ينتج ضمنه (لسان ولغة مرحلة ومجتمع محددين) ونحو السيرورة الاجتماعية التي يساهم فيها كخطاب.[1]"

هذا التوجه المزدوج للنص في سياقه الثقافي والاجتماعي، هو ما يحدد النص **كإيديولوجيم**. وطبقا لهذا المفهوم، **يساهم النص في السيرورة الاجتماعية كخطاب وليس كتصوير للواقع أو إحالة مباشرة على مرجع خارجي**، "إن النص لا يسمى ولا يحدد خارجا معينا: إنه يعين كخاصية (كتناغم) تلك الحركة الهرقليطية التي لم تستوعبها أية نظرية للغة - الدليل - والتي تتحدى الفرضيات الأفلاطونية المتعلقة بجوهر الأشياء وصورها عبر تعويضها بلغة ومعرفة مغايرتين بدأنا الآن فقط نمسك بماديتها داخل النص. فالنص إذن خاضع لتوجه مزدوج: نحو النسق الدال الذي ينتج ضمنه (لسان ولغة مرحلة ومجتمع محددين) ونحو السيرورة الاجتماعية التي يساهم فيها كخطاب.[2]"

هذا الاشتغال الدلالي عبر توسط قوانين الدال، هو ما يحرر النص من أي تبعية ميكانيكية لجوهر ميتافيزيقي أو واقع متعال، كما نعثر على ذلك في النموذج الانعكاسي بمختلف أنماطه السوسيولوجية والسيكولوجية.

إن مفهوم الإيديولوجيم هو ما يحدد أثر النص داخل النص العام الذي هو الثقافة، وهو يعني "تلك الوظيفة للتداخل النصي التي يمكننا قراءتها "ماديا" على مختلف مستويات بناء كل نص تمتد على طول مساره مانحة إياه معطياته التاريخية والاجتماعية.[3]" ولا يتعلق الأمر هنا بإجراء تأويلي لاحق على التحليل، يفسر ما تم تحليله بنيويا ولسانيا، بتحيزات إيديولوجية مسبقة. بل بإجراء منهجي يحدد منهجية السيميائيات التي وهي تدرس النص كتداخل نصي، تموقعه في نص المجتمع والتاريخ.

فالنص كإيديولوجيم يموقع نفسه خارج حدود اللسانيات والمنطق، عبر حفر خط عمودي في مساحة النص، تنقشه عملية الدلالية. ويمثل هذا الفعل الانتهاكي

---

1 علم النص، ص 1

2 علم النص، ص 9.

3 علم النص، ص 22.

شرط اشتغاله كممارسة دالة في السياق الاجتماعية والتاريخي، بحيث لا يكتفي بتصوير الواقع أو الدلالة عليه، "فحيثما يكون النص دالا (أي في هذا الأثر المنزاح والحاضر حيثما يقوم بالتصوير) فإنه يشارك في تحريك وتحويل الواقع الذي يمسك به في لحظة انغلاقه. بعبارة مغايرة، لا يجمع النص شتات واقع ثابت أو يوهم به دائما، وإنما يبني المسرح المتنقل لحركته التي يساهم هو فيها ويكون محمولا وصفة لها[1]."

نفهم من هذا، أن كريستيفا تقترح شبكة من المحددات والوسائط بين النص والمرجع، أشد تعقيدا من تلك التي يسلم بها النموذج الانعكاسي في النظرية الماركسية، أو التي يقعد لها النموذج اللساني الصوري، وذلك عندما تقول بأن النص يحدث تحويلا في نسق اللغة الذي يتحكم في نظام التبادل الاجتماعي، دون أن يرتبط بالواقع بصورة مباشرة، لأن أثر النص كإيديولوجيم في الواقع يمر عبر اشتغال قوانين الدال، أي عبر ما تسميه الدلالية، التي تشكل ما يمكن تسميته **بالمسافة السيميوطيقية** بين النص والمرجع، وبالتالي يظل النص في صيرورته دائما على مسافة من الواقع. وهذا يبين الإبدال الفارق في سيميائيات كريستيفا، لأن المسافة السيميوطيقية توضح الاستراتيجية التي يمكن بها جعل اللغة بؤرة التحليل في كل بحث في آثار النص في السياق الثقافي، وأدواره في تشكل الذات، وإعادة توزيع نسق التبادل الاجتماعي.

الرمزي: الرغبة، الأنثوي:

مع بداية الثمانينات تقتحم جوليا كريستيفا المعترك الحاسم للنظرية النسوية. لكن ما ينبغي التأكيد عليه هو أن كريستيفا ستتورط في هذه المعركة السجالية الجديدة مسلحة بنظريتها الجدلية في السيميائيات، ولذلك سنجد مفاهيم سيميائية مثل "السيميوطيقي" و"الرمزي" و"الشعري" و"الذات" و"التدليل"... توجه تدخلاتها في الحراك النسوي.

هذا الانزياح الجديد في مسار البحث عند كريستيفا لم يكن عرضيا أو حادث مصادفة، بل مبني على مسوغات معرفية، لأن التوجه التحليلي – النفسي

1 علم النص، ص 9.

لعملها السيميائي قادها للتأمل في طبيعة الأنثوي (الذي تراه كمصدر لما لا يمكن تسميته والتعبير عنه). لذلك سنجد أن الاشتغال باللغة ومظاهرها يظل حاضرا ومنقوشا في استكشافاتها الحفرية لاشتغال النسق الأنثوي، تبحث في صيرورته وآثاره على محور الكتابة والتلفظ والذات المتكلمة واللاوعي، بحيث يمكن أن نقول بأن كريستيفا تعني بالأنثوي نمطا من الاشتغال السيميائي، لا موضوعا منتهيا في ذاته ومتبادلا في سيرورة التواصل. إنه في صيرورة اشتغاله يقترن بمحور "السيميوطيقي".

ويمكن أن نجد تفسير هذا التوجه النسوي، في التصورات المؤسسة لسيميائيات كريستيفا، حيث انصب نقدها التفكيكي في أوائل السبعينات – كما رأينا – على النماذج اللسانية والسيميائية ذات الطابع المنطقي الصوري، التي اتجهت إلى التقعيد الصوري للغة. وفي إطار مراجعتها الابستيمولوجية ترى أن النظرة الساكنة للغة ترتبط بفكرة أن اللغة يمكن اختزالها إلى تلك الأبعاد المنطقية التي بإمكان الوعي أن يفهمها، مع إقصاء البعد المادي المتغاير اللاواعي. ولذلك ستعيد اكتشاف دور اللاوعي في بناء خطاب الذات.

إن الاهتمام باللاوعي الذي ظل لامفكرا فيه ضمن نظرية اللغة، سيقود كريستيفا إلى تطوير نظريتها في الذات **"كذات في صيرورة"**. وهو التصور الذي أحدث قطيعة مع التصور الديكارتي للذات الواعية والمتماثلة، المتسامية على أهوائها ورغباتها، التي تزهو بوحدة تمثلاتها في مشهد الوعي الظاهر، والتي يمكنها التحكم في خطابها بإرادة القول.

هذه الذات الديكارتية بفعل مطرقة الهدم التحليلي – نفسي ستتشظى في مسرح اللاوعي، بحيث لم تعد تعكس وعيا حاضرا، ولكن صيرورة ازدواج موزعة بين الوعي واللاوعي، الحضور والغياب، الرغبة والقانون، "بل هي أيضا ما لا يمكن التحدث عنه، ما لا يمكن تسميته: ذلك الشكل المكبوت الذي يمكن معرفته فقط من خلال آثاره."[1]

هكذا بالاتكاء على المنظور المختلف الذي أخذت تتبدى فيه العلاقة بين اللغة

1 جون ليشته: خمسون مفكرا أساسيا معاصرا من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، ترجمة فاتن البستاني، المنظمة العربية للترجمة، ص 293.

والذات على مستوى اللاوعي، مع مدرسة "التحليل النفسي"[1] التي أسسها "فرويد" وطورها "لاكان" بمفاهيم لسانية وسيميائية، ستعمل كريستيفا على تطوير نظريتها في "السيميوطيقي"، حيث سيتم اكتشاف التفاعل الخلاق بين اللاوعي واللغة، والذات المتكلمة "مما أعاد الاعتبار إلى تفاعل اللاوعي - بوصفه «سلسلة دالة» - مع الموضوع، بهدف الوصول إلى استكناه «لاشعور اللغة».

على قاعدة هذه الحفريات في اللاوعي، تميز كريستيفا بين **"السيميوطيقي"** من جهة، وبين السيميوطيقا، أي نظرية العلامات التقليدية، و**"الرمزي"** من جهة أخرى، أي دائرة التمثيلات، والصور، وكافة أشكال اللغة الملفوظة بصورة تامة.

إن "الرمزي" في تعريف كريستيفا هو "نتاج اجتماعي للعلاقة مع الآخر.. ليتأسس من خلال التقييدات الموضوعية التي تمارسها الاختلافات البيولوجية (بما فيها الجنسية)، والبنى العينية والتاريخية للعائلة."[2].

الرمزي إذن، هو نتاج للكيفية التي يرتبط وينتظم بها الناس، كما تحددها الاختلافات البيولوجية، والوراثية، والمجتمع. لذلك فهو شكل سلطوي، يمثل القانون وسلطة الأب، لأنه يعمل كما وضح "لاكان" عن طريق النفي الأبوي: أي قانون الأب[3]. وبسبب ذلك، فالرمزي يفرض الذات ويكبح تدفقها وطاقتها للتحرر والتمرد على سلطة الأب.

بالمقابل، يتميز السيميوطيقي ب"التدفق والوسوم، والتمهيد العصبي.. وبتحولات الطاقة، وبتقطيع متصل جسدي واجتماعي، وتقطيع محتوى المادة الدلالية."[4]

وإذا كانت العلامة والتركيب سمن خاصيات الوظيفة الرمزية، فإن سمات التدفق، والطاقة، والموسيقية، والأمومة والقابلية على التلقي - باختصار اللغة الشعرية - يمكن أن تنسب إلى السيميوطيقي.

---

1 J. Kristeva: Psychanalyse et Langage, in Le Langage cet inconnu, Seuil, 1981, Paris, p. ; 263.

2 ج هيو سلفرمان: نصيات، ترجمة حسن ناظم وعلي حاكم صالح، المركز الثقافي العربي، 2002، ص 257.

3 نصيات، ص 257.

4 نصيات، ص 259.

في ضوء هذا الاستقطاب بين السيميوطيقي والرمزي، يتحدد شكل الخطاب بالنسق الذي يكون فاعلا فيه في وقت معين. "وسواء أكان الخطاب نظرية، أو نصا سرديا، أو شعرا، أو لغة واصفة، أو أي شكل من أشكال الخطاب، فإنه سوف يتحدد من طرف ما يؤديه السيميائي أو الرمزي من وظيفة خاصة.[1]

وتنظر كريستيفا إلى العلاقة بين السيميوطيقي والرمزي على أنها جدلية. فعلى الرغم من أن أحد النسقين قد يهيمن أحدهما على الآخر، في أي لحظة، إلا أنهما لا يعملان منفصلين، لأن أحدهما لا يقصي الآخر على الإطلاق، لدرجة أن يستقل استقلالا كليا.

على المستوى النصي الصريح، يقابل السيميوطيقي والرمزي على التوالي ما تسميه كريستيفا "النص التوليدي" (البنية العميقة بمفهوم تشومسكي). إنه أساس اللغة، ويمثل سيرورة. أما "النص الظاهر" (البنية السطحية بمفهوم تشومسكي) يقابل لغة التواصل، ويمثل المستوى الخطي للنص..

وعلى الرغم من هذا التمييز، فإن النص التوليدي والنص الظاهر لا يوجدان بمعزل عن بعضهما. إنهما يوجدان معا في صيرورة الدلالية.

في سياق هذا التوجه التحليلي - نفسي، وبالتحديد ثنائية السيميوطيقي/الرمزي، تطور كريستيفا مفهومها للأنثوي. فالسيميوطيقي يصبح مساويا للمجال الأنثوي، وهو بصورة تقريبية مكان الأم الذي لا يمكن استحضاره أو تمثيل معناه. إنها أصل من نوع ما، لكن ليس من النوع الذي يمكن تسميته، لأن ذلك سيضعه داخل العالم الرمزي ويعطينا فكرة خاطئة عنه.

هكذا تنظر كريستيفا للأنثوي كإمكانية ثورية للتحرر من سلطة النظام الأبوي وتفكيك كافة أشكال التمركز الثقافية، لأنه ينتمي إلى محور"السيميوطيقي"، حيث يشتغل في ممارسته السيميائية على جانب البعد المادي والشعري للغة. وتجدر الإشارة إلى أن كريستيفا لا تعني باللغة الشعرية استعمالا معياريا خاصا بجنس الشعر، بل تعني به نمطا من الممارسة الدالة. والشعري هنا يتجاوز التقابل البلاغي بين الشعري والنثري، الحقيقي والمجازي، الأدبي

---

1 نصيات، ص 256.

والمرجعي، إلى ثنائية أكثر تعقيدا وجذرية، بين مبدأ الواقع/مبدأ اللذة، الإذعان/التمرد، الخنوع/الثورة. باختصار كل ما يضع الحداثي الطليعي في مواجهة التقليدي المحافظ، أو السيميوطيقي المتحرر في مقابل الرمزي "الجامد"، أو مقابل المرحلة الأوديبية قبل الإذعان إلى سلطة الأب واسمه (ومن ثمة المجتمع)، في مواجهة المرحلة الأوديبية التي يمثل فيها الأب السلطة الاجتماعية وديكتاتورية الرموز[1].

وتنظر كريستيفا إلى الكتابة النسوية بوصفها إمكانا ثوريا في المجتمع، تتسم بالقدر نفسه من الازدواجية والانتهاك والتمرد والدفق الدينامي. إن خاصية الثورة التي تقرنها بالشعري ليست صفة مجازية، فإمكان التغير الاجتماعي يرتبط في رأيها، بالقضاء على أشكال الخطاب التسلطية." واللغة الشعرية تتيح الانفتاح الانقلابي للسيميوطيقي عبر النظام الرمزي المغلق، فما تسعى إليه نظرية اللاوعي تمارسه اللغة الشعرية داخل النظام الاجتماعي وضده.[2]"

وتنظر كريستيفا إلى" الثورة الشعرية على أنها وثيقة الصلة بالثورة السياسية بوجه عام، وتحرر النساء بوجه خاص. إذ لابد للحركة النسائية من "ابتداع شكل من الفوضوية" يستجيب إلى خطاب الطليعة. فالفوضوية هي الموقف السياسي والفلسفي الذي لابد أن تتبناه حركة نسائية عقدت العزم على تدمير هيمنة مركزية القضيب.[3]"

وانطلاقا من تحليل "فرويد" لتشكل الذات، حيث ينبثق اللاوعي بدقة داخل الحكم الواعي، تؤكد كريستيفا على البعد الثوري للغة الشعرية، حين تسند إليها مهمة النفي "لنعد إلى خصائص النفي في اللغة الشعرية. فانطلاقا من الجمع اللاتركيبي الذي يطبع المدلول الشعري، ومن البنية التكاملية الدقيقة التي تنظم صور اللغة الشعرية، سننساق إلى الاعتقاد بأن النمط الخاص من الاشتغال الرمزي الذي هو اللغة الشعرية، يكشف عن ميزة خصوصية للعمل الإنساني حول الدال، غير خاصة بالدليل والذات. في هذا الفضاء المغاير تتقوض القوانين، تذوب الذات

---

1 رامان سلدن: النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة جابر عصفور، دار أنباء، القاهرة، 1998، ص 127.

2 النظرية الأدبية المعاصرة، ص 128.

3 النظرية الأدبية المعاصرة، ص 214.

ويتأسس في مكان الدليل تصادم للدوال وهي تنفي الواحد الآخر. إنها عملية سلب معمم[1]."

على هذا المحور التحليل النفسي الخاص باللاوعي والشعري والسيميوطيقي، تطرح كريستيفا مفهوم الأنثوي كقوة دينامية للتحرر، متجاوزة النزعة النسوية البيولوجية، بواسطة إقامة صلة تربط بين "الأنثى" والممارسات الدالة ومنها الشعري، التي تميل إلى تقويض سلطة خطاب "الذكر"، فتبرز كل ما يعمل على تحريض اللعب الحر لصيرورة التدليل ويمنع "الانغلاق"، بوصفه أنثى، على نحو تغدو معه النزعة الجنسية الأنثوية ثورية تدميرية متغايرة الخواص "منفتحة". وميزة هذه الإستراتيجية الانتهاكية المنفتحة، أنها تتفادى الوقوع في خطر الانغلاق، الذي يهدد بتحويل النسوية إلى إيديولوجية متمركزة حول ذاتها. ذلك أن التوجه السيميوطيقي للأنثوي يمثل حماية له من خطر التقوقع والقولبة. لذلك ترفض كريستيفا تحديد النزعة الأنثوية كنسق مغلق، حين تؤكد على مفهوم الذات كصيرورة. إذا كان هناك مبدأ أنثوي، فإنه ليس سوى البقاء خارج تعريف الذكر للأنثى.

وما يمنع هذا الانغلاق الجنسي، هو الخاصية الانفتاحية للأنثوي، حيث النزعة الجنسية للأنثى ترتبط ارتباطا مباشرا بالخاصية الإنتاجية الشعرية، أي بالمحركات النفس – جسدية التي تمزق استبداد المعنى المركزي وخطاب مركزية اللوغوس (من ثم منطق خطاب القضيب).

وهذا يتلاءم مع المفهوم المركزي في سيميائيات كريستيفا الذي يقوم على دينامية الاستقطاب بين الأنساق العقلانية "المغلقة" والأنساق "المفتوحة" اللاعقلانية. والشعري كخاصية للأنثوي، يوضح كيف أنه ينفتح في صيرورته الدلالية، على الدوافع الأساسية للرغبة والخوف الذي يعمل خارج الأنساق العقلانية، حتى وإن كان يتأسس على نسق عقلي (اللسان). وهنا ينبغي استعادة تمييز كريستيفا بين "السيميوطيقي" و"الرمزي" الذي هو أصل العديد من الاستقطابات الأخرى. ففي الأدب الطليعي – بحسب كريستيفا – تغزو العمليات الأولى بمفهوم "لاكان" التنظيم العقلاني للغة، وتهدد بتمزيق الذات

1 علم النص، ص 91.

المتحدة لكل من المتكلم والقارئ، تلك الذات التي لا تنظر إليها كريستيفا بوصفها مصدر المعنى، بل موقع المعنى الذي يمكن أن يعاني من تشتت جذري للهوية وفقدان للتلاحم. إن المحركات التي يعنيها الطفل في المرحلة قبل الأوديبية أشبه باللغة ولكنها لم تنتظم في لغة بعد. ولكي تصبح هذه المادة "السيميوطيقية" مادة "رمزية" فلابد لها من الاستقرار الذي يتضمن كبتا للمحركات الإيقاعية المنسابة. وإذا كان التلفظ الذي يقارب الخطاب السيميوطيقي أكثر من غيره هو "البربرة" قبل الأوديبية للطفل -(أي الأصوات الأولى للطفل قبل أن يتعلم اللغة، ويدخل المرحلة الأوديبية، التي تتربط بالخضوع إلى النظام، القانون، النسق، وكل ما يسميه لاكان "اسم الأب" أو "قانون الأب")- فإن اللغة تستبقي بعض الدفق السيميوطيقي لهذه "البربرة"، ويميل الشاعر بوجه خاص إلى إبراز هذا الدفق الإيقاعي. وما دامت المحركات الجسدية النفسية هي محركات قبل أوديبية فإنها ترتبط بجسد الأم، فالبحر المنساب تلقائيا من الرحم، والحسية التي تحيط بثدي الأم، هما أول مكانين للتجربة قبل الأوديبية[1]. ومعنى ذلك أن السيميوطيقي يرتبط ارتباطا حتميا بجسد الأنثى، أما الجسد فيرتبط بقانون الأب الذي يراقب ويكبت لكي ينشأ الخطاب. إن المرأة هي صمت اللاوعي الذي يسبق الخطاب، و"الآخر الذي يقف خارجا يهدد بتمزيق النظام الواعي (العقلاني) من الكلام. ولكن من ناحية أخرى إذا كانت المرحلة قبل الأوديبية غير قائمة على التمييز الجنسي، فإن السيميوطيقي ليس أنثويا تماما[2].

الأنثوي، إذن، هو الدفق المتحرر للسيميوطيقي، لذلك تؤكد كريستيفا على حق النساء في هذا الدفق غير المقموع وغير القامع من الطاقة المتحررة. فالشاعر الطليعي – رجلا أم امرأة – يدخل جسد الأم ويقاوم اسم الأب. ومثال ذلك مالارميه الذي يمزق قانون الأب بتمزيق قوانين النحو، ويتحد بالأم باستخلاصه الدفق السيميوطيقي "الأمومي"[3]. في هذا التحليل الدلائلي يكمن تميز موقف كريستيفا من قضايا النساء، على خلاف النزعة النسوية الأنجلو أمريكية التي

1 النظرية الأدبية المعاصرة، ص 213.
2 النظرية الأدبية المعاصرة، ص 213.
3 النظرية الأدبية المعاصرة، ص 213.

تتميز بتمركزها البيولوجي، حيث تتبنى كريستيفا مواقف تدميرية أكثر تعقيدا، تؤكد على وجود الاختلاف في بنية الذات بوصفها "آخر" (سواء كانت أنثى أم ذكرا).

ما يهم كريستيفا هو مفهوم الأنثوي كممارسة دالة يمارس فيها التحويل الابستيمولوجي والاجتماعي والسياسي، لأنه يقود إلى سلسلة متنوعة من الانزياحات والتجاوزات على مستوى النسق الرمزي المتحكم في التبادل الاجتماعي، ولا يخضع لأية مواقف متمركزة مثلما نجد في النزعة النسوية الأمريكية. ولذلك تركز كريستيفا في تحليلاتها للأنثوي على سيرورات النصية والكتابة والدليل، وليس على السياسات النسوية الإيديولوجية ضد الرجل.

وبسبب إلحاح كريستيفا على هذا الموقف الجذري الحاسم، في ضرورة تبني النساء موقفا فوضويا متمردا على الصعيد السياسي والفلسفي، تعرضت لموجة من النقد، باعتبار أن موقفها التفكيكي يقود إلى نوع من الفوضى والتناقض في كتابتها[1]، يتعارض مع ما يتطلبه الموقف الملتزم بقضايا المرأة من وضوح في الإيديولوجية النسوية، لذلك تحذر غاياتري سبيفاك "من أن عدم استقرار المعنى في ذاته لن ينهض بالضرورة بمستقبل نسوي، كما لن يتجنب حتمية التحديد التاريخي على أساس الذكورة والأنوثة[2]".

هنا يكمن جوهر الاختلاف بين كريستيفا والحركة النسوية السياسية. في الوقت الذي تعطي الحركة النسوية الأسبقية **للسياسي**، يحتل **التفكيكي** الأولوية لدى كريستيفا، وتعارض سياسات الجنس في بناء الاختلاف، وبالتالي تعارض التمييز على أساس الذكورة والأنوثة. وحين تبني كريسيفا موقفها من الحركة النسوية على أساس اشتغال السيميوزيس في أفق للدلالة لامتناهي، وغير محدد، يرفض خندقة الذات في نسق مغلق، فهي لا تعبر بالضرورة عن موقف فوضوي عدمي، تقول "إن العملية المتغايرة الخواص (الدلالية) ليست أساسا فوضويا ومتشظيا، ولا سدا انفصاميا، إنما هي **ممارسة بناء وهدمه،**

---

1 Roger Webster: Studying literary Theory, Arnold, 1997, p. ;80.

2 بيل أشكروفت، غاريت غريفيت، هيلين تيفين: الرد بالكتابة، ترجمة شهرت العالم، المنظمة العربية للترجمة، 2006، ص 290.

وعبور إلى التخوم الخارجية للذات والمجتمع. وحينئذ فقط يمكن أن تكون هناك **متعة وثورة**."[1]

ويبدو لنا النقد الموجه للهدم التفكيكي في ممارسة كريستيفا، يتجاهل الطابع المتغاير الدينامي لمفهوم الذات في الابستيمي ما بعد البنيوي، مما يؤكد على أن "الغرابة" شرط لكل تعيين للهوية. فالغريب في مفهوم كريستيفا يشكل مكونا محايثا للذات. إنه القوة الخفية التي تسكن الذات، وتعبر عن التناقضات والاختلافات الداخلية التي غالبا ما يتم كبتها، ويتحايل الوعي على نفيها في طبقات اللاوعي. ولذلك لا توجد الغرابة فقط على مستوى العلاقة مع الآخر المختلف جنسيا أو عرقيا أو ثقافيا، بل تشكل بنية الذات وأنظمتها في التلفظ والتمثيل، بحيث تصبح بنية الذات في أصلها غير متجانسة، ومتغايرة، وهذا ما تعينه كريستيفا بتصورها عن الذات كصيرورة منفتحة مفتوحة، بحيث تتحول إستراتجية تحديد الهوية إلى سيرورة اختلاف وليس تطابق. وهذا يتعارض مع القول بوجود هوية أنثوية موحدة في مقابل الآخر/الرجل.

يقتضي الاختلاف، إذن، أن الهوية النسوية غير متجانسة، وبالتالي متغايرة الخواص، تنتج صورها في سيرورة الاختلاف. وهنا تكمن ميزة منظور كريستيفا، في التفافها إلى لغة النصية والخطاب والعلامة والكتابة واستراتيجيات التلفظ (الذات المتكلمة) في محاولة لفهم بنية الأنثوي. وذلك على خلاف النزعة النسوية السياسية التي تتعامل مع قضايا المرأة من منظور إيديولوجي يقوم على التمييز بين الرجل والمرأة، بحيث تصبح العلاقة بفعل ضراوة هذا الاستقطاب قائمة على المواجهة والإقصاء. وميزة المنظور التفكيكي أنه يتيح لكريستيفا أن تظل خارج سياسات هذا الاستقطاب، وهو ما يشكل حماية للذات من الوقوع في فخ الأنساق الإيديولوجية المغلقة. وهذا ما حذرت منه كريستيفا، حين رأت أن بعض الحركات النسوية السياسية بسبب تمركزها الجنسي، وتوجهها السياسي تحولت إلى حركات توتاليتارية. ولذلك سنجد كريستيفا وبسبب توجهها التفكيكي ترفض تبني مقولة "الكتابة النسائية" التي دافعت عنها جماعة "ناقدات الخصائص النسائية[2]" في محاولة

1 سلفرمان: نصيات، ص 262.

2 النظرية الأدبية المعاصرة، ص 202.

لبناء "أدب خاص بالنساء"، لما فيها من نـــزعة تمييزية جنسية، ولأنها تتعارض مـــع فكرة كريستيفا عن "الذات كصيرورة" غير متمركزة، بـــل متحولـــة في الـــدفق الدينامي للسيميوطيقي. فالنص لدى كريستيفا- كما رأينا- يقوم على لعب الدال وانفتاح الدلالية، وعلى تحويل قوانين نسق اللسان، وبالتالي لا يخضـــع للتقييـــدات الجنسية والحتمية البيولوجية.

إن التأكيد على استراتيجيات النصية، هو أيضا تأكيد على لذة الكتابة الـــتي تقود إلى تأكيد الأشكال المتعددة والمتحررة للذاتية. وفي هذا المنظور، يتم تقـــويض الخطاب الأبوي من خلال اللعب، أي قوانين الدال وليس بالمواجهة والإقصاء.

إن ما يقدمه لنا مفهوم النصية عند كريستيفا من امكانات واســـتراتيجيات لا يفيد فقط في فهم كيفية اشتغال اللغة والكتابة وتعيين الذات كذات نصية، ولكنـــه يطرح علينا رهانا استراتيجيا هو أن نعيد التفكير في منطق السببية والحتمية الـــذي نفهم من خلاله السياسي والإقرار بقوة الكتابة وشروط انـــزياحاتها التدميرية.